يكفي أن يُحبَّك قلبٌ واحدٌ لتعيشَ

قصّة قصيرة للأديبة السوريّة هيفاء البيطار

يكفي أن يحبّك قلبٌ واحدٌ، هذا ما كانت تُردّده في غرف روحها العميقة جدًّا، لصغيرها الأبْلَه ذي السنوات الأربع، وهي تحتضنه في عيادة طبيب الأسنان، وتمسح لُعابه الذي يسيل من فمه المشتور. كانت لا تستطيع مواجهة نظرات الناس الوقحة والصريحة المحدّقة إلى صغيرها المعتوه، الذي يثير الدهشة والسخرية والتعليقات الهامسة وأحيانًا المسموعة. تتحوّلُ النظرات لطعنةٍ عميقة في قلبها المتضخّم بحبّ هذا الصغير المسكين البريء من جنونه وتخلّفه.

أفْلَت صغيرها من ذراعيها المتَصالبَين أمام صدره، واتّجه بخطوات متعثّرة، لكأنّ مفاصله متخلّعة صوب طفل صغير يماثله في العمر، وقف أمامه وَهَمْهَم بصوتٍ اجتهد أن يجعله كلمات لكنّه كان أشبه بالجعير، أجفل الطفل السويّ والتجأ إلى حضن أمّه صارخًا بجزع: ماما، ماما أبعِدي هذا الطفل البشع عنّي.

طمْأنت أمّ الطفل السوِيّ صغيرها قائلة وهي تُربّت على كتفه: لا تخف، لا تخف، لن يؤذيك.

قامت الأمّ ذات القلب المطعون بحربة منذ أربع سنوات، تعيد صغيرها المجنون إلى أَسْر ذراعَيها، تبتلع دموعًا تعوّدت طعمها المرّ وتتساءل في سرّها: لماذا تأخّر الطبيب؟ أَمَا كان قد حدّد لها موعدًا تمام الساعة الخامسة والنصف؟

ركَنَ المجنون الصغير بين ذراعَي أمّه، لكنّه أخذ يصدر همهمات وحركات عشوائيّة لا إراديّة من أطرافه، فيما أمّه تدفن وجهها في شعره الأسود الكثيف هاربة من حصار النظرات.

لم يخطر لها يومًا أن تكون أُمًّا لطفل مشوّهٍ، متخلّف ومجنون كما شخّص له الأطباء. اللعنة على الأطباء. كم تكرههم، ما ابنها إلا ضحيّة لأخطائهم وللظّروف، هذا ما تؤمن به. ولدَتْه طبيعيًّا، سمعت صراخه الأليم وهم يفصلونه عنها، ضمّته بحنان إلى صدرها وشعرت كيف تفجّر الحبّ فجأة من صدرها كانفجار خزّان كبير.

لسوء حظّه كان اليرقان الذي أصابه بعد أيّام من ولادته شديدًا صبغه بالبرتقاليّ الداكن، كان يجب نقله فورًا إلى الحاضنة، لكن الحاضنات الثلاث في المشفى كانت معطوبة. وقد رأتها بنفسها كيف تسرح فيها الصراصير الصغيرة، صرخت بقرف: صراصير في حاضنة للأطفال؟

ردّت الممرّضة بلا مبالاة: إنّها معطّلة منذ أكثر من عامين.

أخذ الصغير يختلج بقوّة، راميًا ذارعيه خارج جسده، كأنّه يتخلّص من شيء ثقيل يرزح على صدره، وتدور عيناه في محجَرَيْهما إلى الوراء، لتتحوّلا إلى بياض تامّ. كان دماغه قد تأذّى بشدّة حين عثروا أخيرًا على حاضنة في مدينة تبعد ساعتين ونصفا عن مدينة الوليد.

انهارت الأمّ حين أكّد لها طبيب الأعصاب أنّ دماغ ابنها قد تأذّى أذيّة كبيرة لعدم إدخاله الحاضنة... صرخت مُلْتاعة وهي تتلوّى ألمًا كدجاجة مذبوحة: والله نحن نعيش على كفّ عفريت، نعيش في هذه الحياة الحقيرة بقدرة قادر.

لم يخطر لها في يوم من الأيّام أن تكون أمًّا لِمَعتوه، المجانين الذين كانت تصادفهم في الشارع لم تكن تُعيرهم أيّ اهتمام، لكأنّهم ليسوا بشرًا، إلا إذا أجبرها المجنون أن تلتفت إليه بسبب تصرّفاته المضحكة والخرقاء، فكيف وقد تحوّلت إلى أمّ لمجنون صغير، لمعتوه بريء من علّته.

الأُسْرة كلّها تمنّت للصغير الموت، وهو لم يتجاوز الشهر من عمره، زوجها الذي كانت تحكي لصديقاتها عن أنّ أروع صفة لديه: الحنان، كان يصرخ متألّمًا: لا أريد ولدًا مشوّهًا. لَيْته يموت، ليته يموت. كانت تخاطبه هامسة كأنّها تحدّث نفسها: لكنّك والده! فَيَرمقه بألم وغيظ ويقول: لكن انظري إليه، أهذا طفل!

فتضمّه بحنان شديد إلى صدرها، كأنّها تتمنّى لو تعيده إلى رحمها، وتسكب على يديه دموعًا غزيرة وهي تبوح له وحده بأنّها تحبّه بجنون، وبأنّها لا تستطيع أن تتمنّى موته أبدًا.

طوال شهور نسيت أخاه الأكبر- صار الصغير المشوّه هاجسها، لم يمْشِ حتى السنتين والنصف، ولم يتعلّم النطق. الأب تعايش مع الجرح بأنجح وسيلة: تجاهَلَهُ، أهمله ونفاه إلى الضواحي القَصِيّة من حياته، صابًّا كلّ اهتمامه على ولده السليم.

وَحْدَها الأمّ كانت تشتري للمعتوه ثياب العيد، ولا تملّ من غسل ملابسه التي يلوّثها عامدًا مذعنًا لشياطين تتلبّس روحه، تأمره أن يعفّر نفسه في التراب وأن يسكب محتويات صحنه على ثيابه ورأسه. كانت تضرب ابنها السليم حين يضرب أخاه المجنون، وتهدّده بحرمانه من حلوياتها التي كانت تحضّرها خصّيصًا للمجنون الصغير.

أجهدت نفسها في تعليمه الكلام، رغم أنّ كلّ الأطبّاء نصحوها أنْ لا فائدة في جعله ينطق، لكنّها توصّلت مع الأيّام إلى جعله يُفَهْمِهم، وكانت وحدها قادرة على ترجمة تلك الهمهمة. كان زوجها يتضايق من شدّة اهتمامها بالصغير المتخلّف، ويشاجرها لإهمالها أسرتها، مؤكّدًا لها أنّ الرحمة الحقيقيّة للجميع أن يموت هذا المسخ.

لم تكن تستطيع تخيّل خلوّ حياتها منه، إنّها تحبّه بجنون، تحسّه قطعة منها، هذا المعتوه الصغير، الذي يفاجئها في لحظات خاطفة كيف يرنو إليها بعينين تفيضان وَجْدًا. ما أجمل عينيه قبل أن يغفو، ما كان ينام إلا وهو يطيل التحديق إلى وجهها، فتحسّ بالتحوّل البطيء والتدريجيّ لملامح وجهها، تحسّ بالحنان يرفرف حولها كفراشاتٍ من نور.

ذات يوم سالت دموعه من شدّة تحديقه إلى وجهها، وحين كانت تبتعد كان يُصدر أصواتًا متألّمة تضطرّها للعودة إليه. وحدها كانت دنياه، دنياه الغنيّة بالحبّ والتي لم يستطع ذوو العقول المحدودة المتباهون بصحّتهم العقليّة أن يدركوا كُنْه حبّ المجانين للعالم.

لم يصدّقها أحد من أفراد أسرتها حين كانت تصف لهم حساسيّة الصغير العالية ورقّته وذكاءه الخاصّ.

ذات يوم حين كسر المزهريّة من الكريستال، ضربه والده بقسوة وهو يهزّه من كتفيه النحيلتين قائلا: الله

يلعن الساعة التي شرّفت بها إلى الدنيا، والله لقد جعلتَ حياتنا جحيمًا، لكنّي لا ألومك، بل ألوم التي تفوقك جنونًا: أمّك.

يومها التجأ بخطواته المتعثّرة، ومشيته المخلّعة إلى حضن أمّه، رمى نفسه في حضنها وهو يرتعش خوفًا كجرو صغير أفْلَت لتوّه من انقضاض وحش مفترس عليه.

كان يبكي ويهمهم بأصوات مخنوقة مبهمة أشبه بالخوار، واللعاب يسيل بغزارة من فمه، ضمّته إلى صدرها، رشفت دموعه بشفتيها، مسحت لعابه بكمّ فستانها، هدهدته حتى غفا.. كانت تتجاهل نظرات زوجها الغاضبة، وحين لم يعد يطيق صبرًا هزّها من كتفها قائلا: ما عادت عيشتنا عيشة، أفكّر أن أُلْحِقه بمدرسة للمتخلّفين عقليًّا.

صرخت: لا، لن أسمح بذلك ما دمت موجودة.

- لكنّه خرّب نصف أغراض المنزل، وهو لم يكمل الرابعة من عمره بعد.

قالت باكية: لا، أرجوك، يستحيل أن يعيش في مصحٍّ للمعوّقين.

صرخ: لماذا؟

لم تستطع أن تجيب في الحال، لكنّها تمكّنت بعد لحظات من جمع شَتات نفسها، قالت وهي تحسّ أنّها تسيل حبًّا كماءٍ مقطّر يغسل الصغير: لأنّني أحبّه أكثر من أيّ شيء في الدنيا. انطفأ الرجل، وَهْلة. شعر أنّ كلماتها خدّرته كالبخور. كان يشعر بالخدر كلّما استنشق بعمق رائحة البخور. هل كانت كلمات زوجته مُتَشَكّلة من بخار روحها المتألّمة؟

صارت فائقة الرقّة مع مجانين الشوارع، تتساءل بشفقة: ما ذنبهم؟

كانت تفكّر طويلًا بمنطق جدّتها في تفسير وجوه البشر المشوّهين والمتخلّفين: لكي يتمجّد اسم الله. لم تكن تقبل هذا المنطق أبدًا، تردّ بسخطٍ على جدّتها: لكنّ الله لا يحتاج كي يتمجّد اسمه أن يخلق بشرًا غير أَسْوِياء يتعذّبون ويُعذّبون أُسَرهم معهم. لكنّ الجدّة تصرّ على تفسيرها، وتستشهد بآيات من الإنجيل، حين سأل أحدهم يسوع المسيح: أيّ ذنب اقترفه هذا المسكين المسكون بالشياطين، حتى يكون مجنونًا؟

قال المسيح: لا لذنب اقترفه، بل ليتمجّد اسم الله.

انفتح باب غرفة الانتظار فجأة، أطلّ الطبيب، نظر في ساعته معتذرًا لها قائلا: أنا آسف، لم أتوقّع أنّ حالة السيّدة معقّدة هكذا.

كانت سيّدة مفرطة الأناقة، تخرج من غرفة الفحص، تضغط قطعة من القطن بين فكّيها، وحين لمحت الطفل شهقت ورسمت بآليّة علامة الصليب على صدرها. تحفّزت الأمّ وصفعتْها بقوّة بخيالها، لكنّها حملت الصغير ولحقت بالطبيب إلى غرفة المعاينة.

كان يدير لها ظهره، يغسل أدواته، ويقذفها في صينيّة معدنيّة بجانب المغسلة قال لها: خير، هل عاد الضرس نفسه يؤلمك؟

قالت: أقصدك هذه المرّة لأجل الصغير.

تعوّدت على نصال الألم تنهالُ بلا رحمة مخترقة قلبها، كلّهم يذهلون حين تعتني بابنها المعتوه، كانت تصرخ أحيانا، لكنّه روحٌ، روحٌ.

كانت لهجته تعني تحديدًا: هل يستأهل هذا المسخ عنايتك؟

لم يسمح المعتوه الصغير للطبيب بفحصه، إلّا وهو في أحضان أمّه، أخذ وجه الطبيب يزداد قتامة وهو يمعن في جوف فم الصغير، قال للأمّ بعد أن انتهى من فحصه: تشوّه شديد في الفكّين والأسنان، الحالة صعبة جدًّا، ومكلفة للغاية أرى أنه من الجنون التفكير بتصحيح تشوّه فظيع كهذا.

سألت وكأنّها لم تسمع كلامه: ما الكلفة يا دكتور؟

حدّق الطبيب إلى وجه المُتَيّمة حبًّا وقال: الكلفة كبيرة، لو أردتِ أحسبها لك. لم يكمل لأنّ بقايا وجدان ذكّرته أنّها أمّ.

قالت: المال لا يهمّ، سأتدبّر الأمر.

رفع الطبيب كتفيْه لا مباليًا وقال: كما تشائين، لكن من واجبي أن أقول لك حرام هدْر المال.

خرجت من عيادة الطبيب تحمل ابنها، كانت ذراعه اليسرى تحيط بعنقها وتعبث بشعرها، وذراعه اليمنى نصف المشلولة تنسدل مرتخية على صدرها. كان حاجز صدره النحيل ينقل إلى صدرها إيقاع دقّات قلبه، تناغم إيقاع القلبين مع إيقاع خطواتها، وعَتْ بعمق كيف يتوحّد قدَرهما بالحبّ، الحبّ صليب، صليب جميل. انتظم إيقاع القلبين وطغى على ضجيج الشارع وصوت المذياع الملعلع. تحوّل الإيقاع إلى كلمات مبهمة أخذت تزداد وضوحًا مع تسارُع خطواتها. كان قلبها يغنّي بسرور باكٍ: يكفي أن يحبّك قلب واحد كي تعيش. يا صغيري البريء، يا طفلي الرائع.

توقّفت عند إشارة المرور. تنبّهت إلى أنّه أغفى على كتفها، قبّلت وجنته المُنَدّاة بلعابه، أحسّت أنّها ترشف عسلًا. دمعت عيناها وهي تتمنّى له أحلامًا سعيدة.

***الأهداف التعليميّة:**

-التعرّف على أبرز مقوّمات القصّة القصيرة كفنّ أدبيّ له مميّزاته الخاصّة (الشخصيّات، زاوية السرد، الفكرة المحوريّة...).

-التعرّف على كاتبة القصّة بإيجاز ثمّ أسلوبها كما انعكس في القصّة (لغة الكاتبة، واقعيّتها، وصفها...).

-إثراء قدرة التلميذ اللغويّة بالتعرّف على التراكيب والمفردات الواردة في القصّة (مثل: المشتور، يرزح، معطوبة، نصال الألم...).

-تنمية التعبير الشفويّ والكتابيّ بنوعيه الوظيفيّ والإبداعيّ لدى التلاميذ.

***الأهداف التربويّة:**

-تنمية التذوّق الأدبيّ والجماليّ لدى التلميذ وتحبيبه بالأدب (استشعار المتعة من خلال تحليل القصّة).

-تشجيع التلميذ وتعويده على اتّخاذ موقف أو رأي عقلانيّ مدروس في أيّة قضيّة اجتماعيّة.

-تشجيع التلميذ على اتّخاذ مواقف من سلوك الآخرين الخاطئ، وتبنّي الموقف الآخر.

-أن نقوّي في التلميذ روح التماثل والتماهي والتعاطف مع الآخرين، خاصّة الأطفال والمرضى، المشوّهين والمتخلّفين.

-توعية التلميذ على تفهّم وقبول الآخر المختلف.

-غرس الأخلاق الحميدة والعادات الصالحة في نفوس التلاميذ وتطهيرها من الكراهيّة والعنف الكلاميّ والازدراء.

-غرس حُبّ واحترام ذوي الاحتياجات الخاصّة والمعوّقين في المجتمع.

الطرق والأساليب:

-عمل ذاتيّ للتلميذ في البيت. (مطالعة القصّة).

-مناقشة القصّة وتحليلها في الصفّ عن طريق الأسئلة والأجوبة.

الفعّاليّات:

-اكتب نبذة موجزة عن حياة الكاتبة هيفاء البيطار ذاكرًا أهمّ مؤلّفاتها.

-ما هو الموضوع الذي تعالجه هذه القصّة؟

-ارسم لوحة فنّيّة مستمَدّة من وحي القصّة. (اختياريّ)

أسئلة للنّقاش في الصفّ:

-ما علاقة العنوان بمضمون القصّة؟ وضّح!

-اقترح عنوانًا آخر للقصّة معلّلًا اقتراحك.

-كيف تستهلّ الكاتبة قصّتها؟

-ما هي الصفات التي تقدّمها الكاتبة للأمّ والابن والأب؟

-اذكر موقفًا للأب لا مشاعر فيه.

-ما هو رأيك في هذا الصنف من الرجال (الأب)؟

-ماذا تنتقد الكاتبة في هذه القصّة؟

-من المسؤول عن تخلّف الابن الصغير؟ ادعم إجابتك بجملة من النصّ.

-كيف كانت تتعامل الأمّ مع المتخلّفين قبل ولادة ابنها؟ هل بقي موقف الأمّ تجاه المتخلّفين على ما هو عليه؟

-المثل "نعيش على كفّ عفريت"، يُضرب في...

-استخدمت الكاتبة الحوار في أكثر من موضع في القصّة. ما الهدف من ذلك؟

-ما رأيك في تصرّف الطبيب مع هذا الطفل؟

- كيف تفسّر سلوك الطفلين: السويّ والمجنون، حسب الفقرة الثّانية؟ وما هو تعليقك؟

-ماذا كنت تفعل لو كنت مكان الأب؟

-كيف ظهرت لك "أمّ الطفل المشوّه"؟ تحدّث عن شخصيّتها.

-هل يمكننا أن نصادف مثل هذا الواقع الذي صوّرته القصّة في مجتمعنا؟ هات أمثلة.

-ما هو موقفك أنت من الطفل المشوّه- علّل إجابتك-؟

-لماذا –حسب رأيك- اختارت الكاتبة لقصّتها هذه النهاية؟ وضّح!

- نحاول اليوم في مجتمعنا عدم استعمال كلمة "معوّقين" بل "ذوي الاحتياجات الخاصّة". ما رأيك في هذا؟

- تكرّرت جملة "يكفي أن يحبّك قلبٌ واحدٌ" في بداية القصّة وفي نهايتها. ما الغرض من هذا التكرار، وهل تؤمن بهذه المقولة؟ علّل.

-اذكر معنى كلّ ممّا يلي:

المشتور، أسْر ذراعيها، معطوبة، معتوه، بريء من علّته، شياطين تتلبّس روحه، المسخ، رسمت بآليّة، وجنته المُنَدّاة بِلُعابه.

تعبير:

-فصلٌ من سيرة شاب فقد بصره، فعوّضه الله بنور البصيرة، وأخذ مجتمعه بيده، فتهيّأت له سبل العيش الكريم.

تذكّر:

المشتقّات: هي أسماءٌ تُشتقُّ من المصادر وتُصاغ من الأفعال الثلاثيّة وغير الثلاثيّة، لتدلَّ على علاقة بين الاسم المشتقّ والفعل الذي بُنيَ منه، كأن يكون الاسم المشتقّ **فاعلًا للفعل** الذي بُني منه أو متّصفًا به، أو مكانه، أو زمانه، أو آلته، وتُبنى المشتقّات وفقًا لأوزان وقواعد.

استخرج من الجمل التالية المشتقّات بأنواعها المختلفة (اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبّهة، صيغة المبالغة) مبيّنًا نوع كلّ منها:

1. تتحوّل النظرات لطعنة عميقة في قلبها المتضخّم بحبّ هذا الصغير المسكين.
2. كانت لا تستطيع مواجهة نظرات الناس الوقحة والصريحة المحدّقة إلى صغيرها المعتوه.
3. تبتلع دموعًا تعوّدت طعمها المرّ وتتساءل: لماذا تأخّر الطبيب؟
4. تدفن وجهها في شعره الأسود الكثيف هاربة من حصار النظرات.
5. تشوّه شديد في الفكّين والأسنان، الحالة صعبة جدًّا ومكلفة.
6. أرى أنّه من الجنون التفكير بتصحيح تشوّه فظيع كهذا.
7. كان حاجز صدره النحيل ينقل إلى صدرها إيقاع دقّات قلبه.

الصفة المشبّهة باسم الفاعل

هي صيغة مخصوصة تُشْتَقّ من مصدر الفعل اللازم، للدّلالة على ثبوت نسبة الحدث (المصدر) إلى من اتّصف به.

اقرأ المثالين التاليين: 1- هو بطلٌ. 2- هذا حصنٌ منيعٌ.

تجد أنّ كلمة (بطل) تدلّ على البطولة، ومن اتّصف بها اتّصافًا ثابتًا تقريبًا، وأنّ كلمة (منيع) تدلّ على المناعة، وما اتّصف بها اتّصافًا ثابتًا تقريبًا. فالكلمتان (بطلٌ ومنيعٌ) صفتان مشبّهتان.

ضع إشارة صواب/خطأ بجانب كلّ جملة وصحّح ما يجب تصحيحه:

_كلمة "الحقيرة" هي صفة مشبّهة باسم الفاعل _____

_كلمة "سليم"هي صفة مشبّهة باسم الفاعل _____

_كلمة "المخلّعة" هي صيغة مبالغة _____

_كلمة "الخرقاء" هي صيغة مبالغة _____

_كلمة "خصّيصًا" هي صيغة مبالغة _____

كيف نصوغ الصفة المشبّهة؟

الصفة المشبّهة من الفعل الثلاثيّ على أوزان كثيرة أشهرها:

1. **أفعل الذي مؤنّثه فعلاء**، مثل: أسمر- سمراء، أبيض- بيضاء، أغبر- غبراء، أرعن- رعناء.
2. **فعلان الذي مؤنّثه فَعْلى**، مثل: عطشان- عطشى، حيران- حيرى، دفآن- دفأى.
3. **فَعَال**، مثل: جبان، خراب.
4. **فُعَال**، مثل: شُجاع، فُرات (أي: عذب)، أُجاج (أي: مُرّ)، زُلال.
5. **فَعَل**، مثل: حَسَن، بَطَل.
6. **فَعْلٌ**، مثل: شَهْم، سهْل، طَلْق.
7. **فِعْلٌ**، مثل: مِلْح، جِبْس، نِكْس (أي: جبان).
8. **فُعْلٌ**، مثل: حُرّ، حُلْو، مُرّ.
9. **فَعِلٌ**، مثل: فَرِح، فَطِن، لَبِق، نَكِد، نَجِس.
10. **فَعيلٌ**، مثل: سَليم، كَريم، وَسيم، بَعيد.
11. **فاعِلٌ**، مثل: صادِق، طاهِر، فاضِل، ثابِت، **إذا** تضمّن معنى اللزوم والثبات.

*هات اسم الفاعل واسم المفعول وصيغة المبالغة والصفة المشبّهة باسم الفاعل(متى أمكن) من الأفعال الآتية:

الفعل	اسم الفاعل	اسم المفعول	صيغة المبالغة	الصفة المشبّهة
مسح				
أجْفل				
أعاد				
قام				
خَطَر				
سمع				
صبغ				
ردّ				
أخذ				
كسر				

صيغة المبالغة

هي صيغة مخصوصة تدلّ على الحدث ومن وقع منه أو اتّصف به على وجه المبالغة؛ أي: تدلُّ على ما يدلُّ عليه اسم الفاعل مع إفادة التكثير والمبالغة.

تأتي صيغ المبالغة على أوزان سماعيّة، وهي:

1. **فَعّال**، مثل: قَرّاء، كَذّاب، جَبّار، تَوّاب، جَوّال، غَفّار، حَلّاف، فَتّاك، قَوّال، قتّال.
2. **فَعول**، مثل: غَفور، كَذوب، صَبور، جَهول، عَجوز، وَدود، أَكول، شَروب، عَطوف.
3. **مِفعال**، مثل: مِضياع، مِنحار، مِعطاء، مِدرار، مِغوار، مِقدام، مِعوان، مِفضال.
4. **فَعيل**، مثل: سَميع، رَحيم، عَليم، فَهيم.
5. **فَعِلَ**، مثل: حَذِر، سَمِع.
6. **فِعّيل**، مثل: قِدّيس، شِرّير، صِدّيق، دِرّيس، شِرّيب.

*تنبيه: العامّة يلفظون هذه الصيغة مفتوحة الفاء، فيقولون: دَرّيس، لَعّيب... وهذا خطأ صوابه أن تكون مكسورة الفاء.